سهواً باتجاه الأسى

محمد درويش علي

تدقّ اللحظة ناقوسها، ويحين الأفول، والسكون يخفوته، يجررنا الى اللاجدوى في دهاليز الخفاء والجفاء والبعد عن العيون والايادي والكلمات. تدق اللحظة ولم نتهيأ بعد للآتيان بشجاعة المواجهة للآتي من الايام التي تلوك صبرنا وتقتات على نزوع الراحة فينا. لا بأس اكتم أنفاسك، واغمض عينيك، وسر باتجاه لا يعينه الدرب، ولا يقيسه الوقت، وانهل من الفراغ قوت يومك، وارم به في وجوه المارة، وتدثر بفضول نظراتهم التي تثقب قميصك الذي تمر اليوم ذكراه العاشرة وأنت ترتديه للمرة الألف، وابتع لك متراساً من حظ لئلا يأتيك النحس في غفلة من عيون ترمدت من النوم والتحديق في فضاءات الصحو، الصحو الذي يذهب بانفعالات أحلام اليقظة.

سأتذكر هذه اللحظة، حين تهادتني امراة، وأحرب فحولتي وصبري وأنا اوصيها وأتذكر ايامي في اللاجيء، وبكائي في ساعات الغروب على ترمل الزمن.

سأتذكر هذه اللحظة حينما أجوب شوارع مدينتي وأتلمس مكاني في تخوت النقاهي، وأرصفة الذاكرة الجريحة وعيون الناس التي تعرفني ولا تعرفني، وأنا أغوص في وجودي باحثا عني في كل مكان، واجداً نفسي في كل مكان، مفتقداً اياها في كل مكان، لعل أحداً يتذكر ضالاً في قميص السهو يسير الى حيث لا يدري الى المدينة التي تشبه سواها، وتسافر الى منفى يشبه الأغلفة، يشبه التحجر، حيث الليونة والطعم اللذيذ والذوق الرائق.

سأتذكر هذه اللحظة، حيث ينكسر الناقوس من فرط دقه الفرط كقلب وجل، يجوب طرقات الأجساد التيهة بسبب تراكم السنوات والإفراط في ممارسة الحياة. لعل اللحظة لا تغادر زمنها وتجوب الآن في تشعبات الرهبة في قلوبنا التي تصيخ السمع لدبيب اللاشيء.

منذ أربعين عاماً وأنت لوحدك تأكل مع السأم وتأكلك الأوراق والكتب النسية. ماذا تبغي يا ترى من هذه الوحدة الزمنة التي تراكمت وبانت عليك؟! إنه الناقوس ثانية، يدق، ويدق، ويدق، ولكن ما الجدوى والخطر تسرب الى مسامات الروح، ويأكل في الأوعية كالسرطان الذي لا أمل يرتجى منه؟! إنه الناقوس، إنها الحياة تثأر لنفسها، تريد مكافأتها على سنوتها التي ركدت في مكان واحد، وهي تلتقط الآن أنفاسها على حافة الإهمال واللامبالاة والسهو مرت عليك امراة، وثانية، وعاشرة وربما تفاقم العدد الى درجة عدم التصديق ومنحت نفسك دون مقابل حتى تعب القلب وكل وضل في الدروب التي لم تحسن السير فيها، وعدت من جديد تحمد نفسك على انتصارات غير محسومة، بل انتصارات خاسرة ودخلت الحروب من اوسع ابوابها، ونقت مرارة الموت وحلاوة الفرار، وضيق الأسر، ومحنة الجوع والعطش ونفاد العتاد، وقلة النافذ حين العدو كان يطوق الجهات وعدت محملاً بالأغاني والأماني والحكايا الملة عن الجنود في الثلاجيء والسوائر الأمامية. حياة زاخرة بالفطرة والخبرة، برجاحة العقل ورعونة التصرف، وظللت تعلاً أيامك بشظايا القنابل والحكايا، وقصص الأسر والهروب والموت، وخيانة الزوجات في الغياب، وموت الأمهات من كمد الإنتظار. ولا أحد يصدقك، إنها مبالغات، هكذا توصف أحاديثك، لا يصدقون أنك نجوت من الموت بموت آخر ورهنت لحياة على الأرصفة عند باعة الخردة، ونساء اللذات العابرة. لا يصدقون، والشكلة هي إنك لا تصدق أنهم لا يصدقونك وما زلت في مسعاك هذا، حتى جاءت صواريخ أمريكا تدق عليك الباب: أخرج أيها الناجي من موت السنوات الثماني، أثبت من جديد أنك مؤهل لخوض حرب ثانية، لن تنجو منها هذه المرة! ومرت الصواريخ فوق الرؤوس التي لم تطأطيء لها، واندثرت في التراب، ومرت غيرها، سقطت جور، وتهاوت بيوت وتضررت شوارع.

هكذا بقيت تبغي حياة ملؤها النساء والخمرة والحدائق الغناء والأصوات التي لا تنفد، أحلام تؤطرها النساء والكوابيس والصواريخ والحروب، وسرت بحذاء منقوب تجوب الطرقات الغلقة وتعود منهكاً لأقرب حداء يعيد اليك ترتيب حذائك كل ثلاثة أيام أو أقل، حتى صار الحذاء والحذاء يعرف أحدهما الآخر من أول مسمار يميد تحت الطرقة.. وكان الشعر رفيقك في رحلة الأبدية هذه مرآة ترى فيها احباطات تنمو كل يوم وتتسلق جدران منزلك النتهرىء، حين يدق عليك صاحب الدار الباب ويطلب زيادة أجور الحياة، إنك تعيش في وطنه، ودونه أنت غريب لا مأوى لك ولا بامكانك ممارسة طقوس الحلم والسبات والشعر. إذن اكتب ولا يفيدك سواها. ولكن ماذا اكتب؟ الذي يحدث أوسع من أوراقي وقلمي الذي لا يحسن القول متى شئت. الرصيف يكتب خبر أمسي، إنه شريط حسي وعلى الهواء، رجال يقتلون الوقت ويشترون الراحة، رجال يبيعون الأحلام من أجل نوم مستقر هادىء، رجال يسرقون سواهم ويتطلقون الى حانات الصحو الليلي قبل أن يدركهم النهار وتفضحهم الشمس.

إذن لأكتب شيئاً من يومياتي:

أخاف على العصافير، لأنها تحلق عالياً وتدنو من الطائرات. كم أحب العصافير وأسراب الطيور المهاجرة في سماء بلادي! رفقاً بالعصافير والطيور فهي ليست من الطائرات، صحيح إنها تطير لكنها لا تقصف بيتاً ولا تهدد أو أد، إنها تبني أعشاشاً وتزقزق وتهدل ولا غير.

قصائد

حسين علي يونس

((الشاطىء))

فكرة تتموّج
على ورقة
تتذكر أمواجها
السائبة.

((يا أيها الدم))

فمك كان يغرق وينبجسُ
-أين دفنت سهدك أيها الإنسان؟
كان فمك يناديني.
وأنت تجرُ هذه السلسلة الطويلة من
المآسي
أضغ احتمال ندمك
وأترجاه
- لقد تعبنا كثيراً
وأنخنا بأرواحنا للمنتصر.

((عندما))

عندما الليل يدهورُ أغنيته
وعندما المحتشد في مقبض الخلاص
يشق جدول الأغنية
عندما المأساة تكوّر ظلالها الثقيلة
على المنازل
وعندما
الأمل يغلق صباحه على الأشجار
المثمرة
عندما أنقل تململ فمك
عندما كان وجهك على الضفاف
وعندما ثمة سرب وصرخات طويلة
ترسو وتضيعه.

((حكاية))

رجل أحب امرأة
كلما حدثتها
في موضوع ما
تضجر
وتدس رأسها
في كومة من الصحف القديمة.

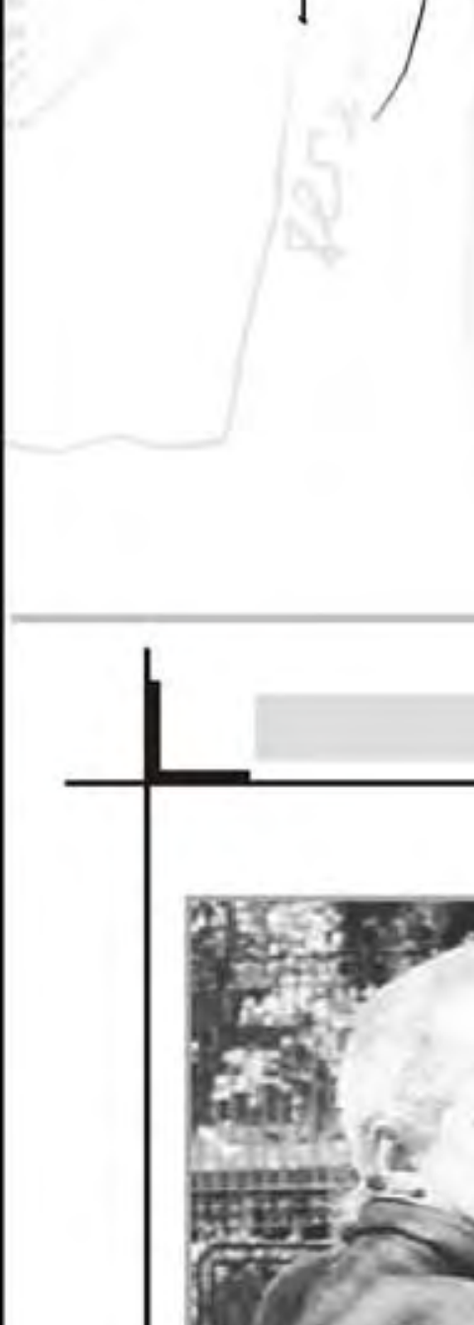

أنماط المغايرة في الكتابة الروائية

جاسم عاصي

يرتبط العمل الروائي جدلياً بالواقع، لأنه يتخلق من حركته ونظامه، ثم يتشكّل من أجله، فهو النمط المدون للواقع. وهنا لابد من طرح السؤال كالتالي: ترى كيف تكون صيرورته.. ؟ الجواب في: أنه عمل سردي يخضع للعلة والمعلول، للسبب والنتيجة. لذا فتشكله يخضع للذاتية التي ينتظم عليها الواقع. بمعنى ترتبط العلاقة داخل النص بجدلية صيرورة هذا الواقع المطروح ضمن نظامه وتشكله.

على الرغم من استقلالية نظام النص، فإنه على صلة مباشرة وغير مباشرة بنص الواقع. من هذا يمكننا القول أن النص المدون هو استجابة واعية لنص الواقع. إذ تبرز خاصية.. كيف..؟ أو سؤال الآلية ثم النمط. فعلاقات عناصر الواقع إزاء منتج يتميز بمعرفة متحركة وشاملة، منفتحة على رؤيا متجددة ومبتكرة. أي منتج- بكسر التاء- يمتلك ثقافة منتجة وليست سياقية أو راكدة. فهو يتعامل مع الواقعة تعاملاً مغايراً لما هو سائد. فالنظر الى الواقعة ينبثق من ذاتية ترتكن الى المحتوى التجدد. من ذلك تكون النظرة الجدلية لعناصر الواقع يشترطها نظام رؤيوي وإنتاجي، وليس نسقاً وسياقاً يشترط أساً سائدة. إن هذه الاستجابة لنمط الواقع وحيويته تساهم في تحريك مفردات العارف. مما يرشح آليات جديدة على وفق رؤيا مستحدثة خاضعة لقانون البقاء والديمومة. من هذا وغيره. نعتقد أن انبثاق أو ولادة نصوص مغايرة في البناء والعاني، هي نصوص تشتغل على توظيفات معرفية واسعة، تتنامى مع سياق الحياة وتطورها، مع حركتها وتجددها. فالنص الروائي عالم متجدد، يبشر بقوانين جديدة تتحكم بها جدلية دائمة ولو نظرنا سريعاً الى أعمال- ماركيز- موديرا- كالفينو- الغزاوي- الركابي- حبيبي- الغيطاني- طه حامد شبيب- محمد خضير- جهاد مجيد- ربيع جابر- كونلهو- علي بدر- لطفية الدليمي، نرى أن نصوصهم الجددة خضعت لجدلية علاقة النص بالواقع، مما كيف حاضنته لاحتواء عناصر معرفية كثيرة خاصة وعامة، وطوع النص كبنية لتشكل جديد يبرز فعاليته، وحيويته، بما يملكه من خاصيات التحريك والانبعاث. وفي ذلك لابد من الإشارة الى أعمال ابراهيم الكوني وخاصة والجوس وخماسية الخسوف- فقد تم فيها وفي غيرها من النصوص الروائية احتواء الواقع والمكان لترشيح رؤى وأفكار انخلعت في سياقات معرفية وتطلوجية، ساهمت بتفعيل كل الأطراف المكنة، والتي من شأنها تخليق النص لجديد على وفق ما ذكرنا آنفا.

لذا فنحن أمام ظاهرة في الكتابة الروائية تحمل مغايرة في نمط الكتابة والعاني. وهنا نلاحظ تكرار قيمة البحث والتقصي عن (المفقود) أو الغيب. والتي تسود الكثير من الأعمال. أي البحث عما يسد الفراغ سواء كان معرفياً أم حياتياً، وهي في مجملها ترتكز على مبدأ الشك في الأشياء والعلاقات والتوصلات والظواهر. الشك الذي يقود الى التدقيق والاستبدال ثم الاستخدام. خاصة التعبير عنها بأساليب يجدها النتج أكثر منسبة وملائمة. فالمكان هنا على سبيل المثال هو الأساس في عكس الأفكار والرؤى. وهو المجال الذي من خلاله يمكن تحقيق البنيات الأخرى. يضاف إليه الوشيجة التي ترفد حقائق النص. وجميع ذلك يعني حفيظة واحدة في مجال التعويض عن المفقود أو الخراب، بمعنى البحث عن المكان أو الوشيجة أو شجرة العائلة والنسب وغيرها الكثير. إذ يتركز ذلك في ما يلي:

. البحث عن سلالة أو انتماء الى الجماعة.
2. التقصي عن وشيجة تعيد للوجود ماحيثيته.
3. المغامرة في الوصول الى المدينة أو المكان المتخيل والمؤمل.
4. الاستجابة للوصايا التي تأخذ بعداً مقدساً.
5. أسطرة الواقع، وذلك باتباع نمط أسطوري ذاتي.
6. الاستناد الى التأريخ باتباع منهج وأسلوب الإزاحة والتأسيس لتفعيل الخيالة السردية.

ففي الأول تساهم حالة الإحباط الذاتي وفقدان الحرية الشخصية دوراً أساسياً، وهو سبب لا يعلن عن نفسه بسهولة، بل يتوارى خلف مسميات، معبراً عنه في تقصي حالة الإنتماء إلى سلالة الأجداد والجماعات لإطفاء جذوة الحرمان والفردانية.

وفي الثانية، فإن النتج يرى أن ما هو موثق يعيد للأشياء جدارتها، وهنا تتشعب الوثائق فهي إما ذاتية مختلقة أو جملة وثائق تأريخية أو آثارية يمكن الاستناد اليها في حضور مبرر ممارسة التقصي هذا، ثم مبرر توفير علاقات صراع جديدة.

أما في الثالثة، فإن التشبث بالمكان لجيداً أو المؤمل، يعني إستعادة القيمة العليا التي يوفرها المكان الدمر من جراء الحرب مثلاً. لذا فالأمر البحث عنه يؤدي إلى البحث عن بنى فكرية وأخلاقية من شأنها إعادة الحياة إلى مجاريها المؤملة. وفي أولى متطلباتها هو الاستقرار والأمان الاجتماعي.

أما في الرابعة، فإن مبدأ الانطلاق في التقصي عبر الفترات الثلاث يبرر ما تضمره الوصايا أو الأقانيم وهي تقود الى مفهومات مقدسة يفعل الزمن، وعلى سبيل المثال الأحلام التي راودت -جلجامش- الأمر الذي دفعه الى التقصي عن المعنى الكامن في الحلم ليضع مبرر أو حلته. كذلك الأحلام التي راودت فتى في رواية الخيمياني- لكونلهو- وفي هذا اشتغلت الرواية الحديثة على مثل هذا النمط من التشكل.

أما في الخامسة، ففيها تتم محاولة تحويل ما هو واقعي إلى أسطوري، وذلك بتأثيرات قوى موضوعية ضاغطة.

وفي السادسة، يحاول النتج تخصيب واقعته في الرواية بما يمنحه مخياله السردي. مستنداً إلى ثوابت تأريخية أو شبه تأريخية.

إن ما يهمنا هنا هو جانب المغامرة في الوصول إلى المدينة المتخيلة والمكان والوشيجة ..الخ. وفي هذا نرى أن البحث خاضع لكينونته وصيرورة تشكل النتج العرفي والفكري، ذلك لأنه الوسيلة للوصول، كان قد استثمر نفسها الجدلي. ثم إنها استجابة لحاجة يتماهى فيها المكان مع التصور لأنه خاضع لرسوخ المعتقد. من هذا تتشعب النظرة سواء في البحث أو القصد إعتماداً على المقولة الفلسفية- أنت لا تدخل إلى النهر مرتين- فنرى أنفسنا أمام مرامي مختلفة وبوابات لهذه المدن، كذلك الذي ينتظم داخلها، يكون مختلفاً. فنحن أمام أعمال ظهرت للوجود، وهي أعمال مهمة تحمل خصائص متباينة. لكنها تصب في ذات النحى من المعاني التي تتركز في البحث عن صيرورة والتعبير عن الوقائع بالأقنعة ومنها- الراووق- سابع أيام الخلق- من يرث الفردوس- بوابات أحمد للشهداني- دومة الجندل- ابتكار المدن - مدونة مستعمرة الباه- النجدية الأولى- النعطف- بابا سارتر- مدينة الزعفران- التل- لكتاب هم، عبد الخالق الركابي- لطفية الدليمي- عباس عبد جاسم- جهاد مجيد- جاسم عاصي- طه حامد شبيب- حنون مجيد- علي بدر- عباس خلف علي- سهيل سامي نادر.

وهنا نلاحظ اختلاف وجهات النظر في آلية البحث أو الكينونة المبحوث عنها، وهذا ما تتحكم فيه أسباب كثيرة تخص التشكل العرفي والفكري أساساً. غير أنه بالامكان الوقوف على السبب الرئيس الذي يدفع بالنتج إلى التقصي عن الصيرورة للخلاص المتمثلة في المدن أو الحصون أو الوثائق، بمعنى محاولة استبدال المكان، وهو دائماً ما يكون مكاناً يوتوبياً متخيلاً. حيث تلعب في خلقه الظروف الموضوعية القاسية كالحرب والقهر السياسي. فلو نظرنا إلى أعمال قصصية أو روائية ضمن ما ذكرنا، نرى أن الحرب والقهر السياسي من الأسباب الرئيسة. ولقد ذكرنا ذلك ونحن بصدد دراستنا لروايات مثل- من يرث الفردوس- ودومة الجندل- النجدية الأولى- النعطف. فمثل هذا الاستبدال يأتي من بعد حدوث نوع من الخراب على بنية المدن، وهو خراب مادي ورمزي ومعنوي وأخلاقي يقود إلى خراب فكري، يدفع إلى سخط من الخلاص كسلوك استبدالي للمكان مثلاً. وهو سلوك يندمج ضمن البحث عن سفر بكسر السين- وملاذا من يعيد للأشياء تماسكها، وللمفقود استرداده، وللتشظي أصوله ومركزيته. وكثير أما تركز هذا البحث عن المدن ذات البعد التأريخي أو الأسطوري، وهو نوع من إحياء المعرفة الكامنة، لأن الأسطورة والتأريخ تشكلان الجذر الأول لذاكرة الإنسان.